المحاضرة الأولى: مفهوم اللغة ونشأتها

تمهيد:

اللغة هي الوسيلة التي يتمكّن بها الإنسان من التعبير عن أفكاره ومشاعره، وبها يتواصل ويتفاهم مع الآخرين. وهي من أبرز ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات.

أولاً: مفهوم اللغة

اختلف العلماء في تعريف اللغة بسبب ارتباطها بعدة علوم، مثل علم النفس والفلسفة والاجتماع.

ومن أبرز التعريفات:

ابن جني (ت ٣٩١هـ): (اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)، أي أن اللغة أصوات منطوقة، تؤدي وظيفة اجتماعية للتعبير عن المعاني والأفكار داخل المجتمع الواحد.

ابن خلدون: اللغة عبارة عن تعبير المتكلم عن مقصوده، وهي ملكة في اللسان كما أن الكتابة ملكة في اليد، أي أن اللغة عادة مكتسبة نكتسبها بالممارسة.

تعريف المحدثين: اللغة نظام من الأصوات والرموز المتفق عليها للتواصل بين أفراد المجتمع.

ثانياً: نظريات نشأة اللغة الإنسانية:

اختلف الباحثون قديما وحديثا في موضوع نشأة اللغة الإنسانية الأولى، ومدى نجاعة دراسة هذا الموضوع بين معارضين للبحث فيه إلى درجة التحريم باعتباره موضوعا لا يمكن التحقق من صحة وقائعه، وبين مؤيدين بل ومصرين على مثل هذه البحوث اللغوية التي تنبع من التراث المعرفي.

تعددت آراء العلماء حول أصل اللغة الأولى، ومن أبرز النظريات:

1. **النظرية التوقيف أو الإلهام الإلهي:** ترى أن الله تعالى هو الذي علّم الإنسان اللغة، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، أي أن الإنسان تلقّى اللغة بوحيٍ من الله، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراقليط (ت) ٤٨٠ ق م) وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها لامي والفيلسوف دونالد ومن علماء المسلمين في العصور الوسطى أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وأبو الحسن الشعري (ت ٣٢٤ هـ) وأحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) الذي يرى أن لغة العرب توقيفية.
2. **نظرية المحاكاة:** ترى أن اللغة بدأت بمحاكاة أصوات الطبيعة، مثل خرير الماء أو نعيق الغراب، ثم تطورت بتطور العقل الإنساني، مثال ذلك: كلمة (المواء) للقط، و(الخرير) للماء، ومن أهم أدلتها : أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية، تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل، فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة أصوات الطبيعة، فيحاكي الصوت قاصدا التعبير عن مصدره، أو عن أمر يتصل به، لكن يوجه لهذه النظرية

انتقاد أساسي، فهي من جهة تعجز عن تفسير مبدأ كيفية حكاية الأصوات في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها، فما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه مثلا ؟

3. **نظرية الاصطلاح والاتفاق:** وهي أن الناس اتفقوا على تسمية الأشياء بأسماء معينة، ثم توارثها الأبناء، إلا أن هذه النظرية لا تفسر كيف تم أول اتفاق قبل وجود لغة أصلاً.
4. **نظرية الغريزة:** أي إن الله زود الإنسان بآلة الكلام، وبجهاز النطق فهو حتماً سينطق شاء أم أبى.

ومن هنا فإنه لا توجد نظرية واحدة يمكن أن تفسر نشأة اللغة الإنسانية وأن ثلاث نظريات متكاملة يمكن أن تفسر ذلك. فالله سبحانه وتعالى أهل الإنسان وأعطاه القدرات الخاصة، فألهمه لكي ينطق وينشئ اللغة، وبهذه القدرة استطاع الإنسان الأول أن يضع كلماته وجمله الأولى بالإصغاء والملاحظة والتقليد لما يوجد حوله في الكون، ولما تقدم الإنسان وارتقي في التفكير ، بدأ بوضع كلمات جديدة بالتواطؤ والاصطلاح الذي ما زال مستمرا إلى يومنا هذا بل إلى قيام الساعة .

ثالثاً: نشأة اللغة العربية وتطورها:

- **اللغة العربية واللغات السامية:** العربية تنتمي إلى أسرة اللغات السامية (كالآرامية والعبرية). وهي أصفى هذه اللغات لأنها احتفظت بأصولها القديمة أكثر من غيرها
- **.لهجات العرب قبل الإسلام:** كانت هناك لهجات متعددة مثل لهجة قريش، وهذيل، وتميم، وطيّء، وغيرها، ومع ذلك كانت العربية الفصحى تجمع العرب في الشعر والخطابة.
- **نزول القرآن الكريم:** كان نزول القرآن الكريم بالعربية الفصحى أهم حدث في مراحل تطورها؛ فقد وحد لهجاتها المختلفة في لغة فصيحة واحدة قائمة في الأساس على لهجة قريش، وأضاف إلى معجمها ألفاظاً كثيرة، وأعطى الألفاظ أخرى دلالات جديدة كما ارتقى ببلاغة التراكيب العربية. وكان سببا في نشأة علوم اللغة العربية كالنحو والصرف والأصوات وفقه اللغة والبلاغة، فضلاً عن العلوم الشرعية، ثم إنه حقق للعربية سعة الانتشار والعالمية، وحملت العربية الفصيحة القرآن الكريم، واستطاعت من خلال انتشار الإسلام أن تبدأ زحفها جنوبًا لتحل محل العربية الجنوبية القديمة، ثم عبرت البحر الأحمر إلى شرقي إفريقيا، واتجهت شمالاً فقضت على الآرامية في فلسطين وسوريا والعراق، ثم زَحَفَتْ غربًا فحلَّت محل القبطية في مصر. وانتشرت في شمال إفريقيا فَخَلَفَتْ لهجات البربر، وانفتح لها الطريق إلى غرب إفريقيا والسودان، ومن شمال إفريقيا انتقلت إلى أسبانيا وجزر البحر المتوسط.
- **الكتابة العربية:** تطورت من الكتابة النبطية أو المسندية القديمة، وكانت أولاً بلا نقط ولا حركات، حتى جاء أبو الأسود الدؤلي فوضع النقط للحركات، ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وضعا النقط لتمييز الحروف المتشابهة.
- **العربية في العصرين الأموي والعباسي:** في العصر الأموي أصبحت العربية لغة الدولة والإدارة، في العصر العباسي ازدهرت العلوم، ودخلت مصطلحات جديدة إلى اللغة عن طريق الترجمة، فأصبحت العربية لغة الحضارة والعلم.

الكتابة العربية

لم يعد هناك شك في معرفة عرب الجاهلية للكتابة والتدوين، لا سيما في الحواضر كشمال الجزيرة العربية وجنوبها حيث تتوفر الأحجار والصخور التي استخدموها كوسائل سهلت لهم عملية التدوين، فضلا عن عظام أكتاف الإبل والخشب والأديم واللحاف والعسب والرقاع، وكان التدوين يقتصر على مقتضيات الحياة الاجتماعية كتدوين الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق وغيرها.

ويرى فريق من المؤلفين أن الكتابة العربية قد انبثقت عن الخط المسند الحميري الذي يعرف أيضا بالخط الجنوبي، وأن هذا الخط قد وصل إلى موطن المناذرة وبلاد الشام عن طريق القوافل التجارية التي كانت تنتقل بين جنوبي الجزيرة العربية وشماليها ثم انتقل عن طريق الحجاز إلى بقية الجزيرة، بينما يرى فريق آخر أن الكتابة العربية هي استمرار متطور للكتابة النبطية التي انحدرت من الكتابة الآرامية المتطورة عن الكتابة الفينيقية، وقد اعتمد هذا الفريق في رأيه هذا على النقوش والمكتشفات الأثرية التي حملت مجموعة العناصر التي تألفت منها الكتابة العربية في الرسم والإملاء واتصال الحروف وانفصالها، وكانت الكتابة العربية آنذاك عارية من النقط خالية من الشكل، شأنها في ذلك شأن الكتابة الأم النبطية التي اشتقت منها، وقد وجدت كتابات على الأحجار وصورها، فالنصوص الثلاثة الأولى وجدت في سيناء وهي مؤرخة بين سنتي ٢١٠ و ٢٥٣ للميلاد، والنص الرابع وجد في الحجر وهي مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧م، وذكر كذلك نقشا خامسا في حوران غير مؤرخ ولكن المستشرقين اينوليتمان والكونت دي فوج يرجحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠ م، هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهي نصوص عسيرة القراءة ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربي وكلها دون نقط أو إعجام، أما أقدم نص وجد مكتوبا بالعربية الفصيحة فهو نقش الثمارة الذي وجد على قبر امرئ القيس بن عمرو الذي يوصف بأنه ملك العرب في النمارة في إقليم حوران بجنوب فلسطين وهو مؤرخ سنة ٣٢٨م، وهيئة الكتابة في هذا النص قريبة من هيئات الحروف والكلمات في الكتابات الإسلامية الأولى، وهو يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربي لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريبا.

هذه صورتها الحقيقية :(*)

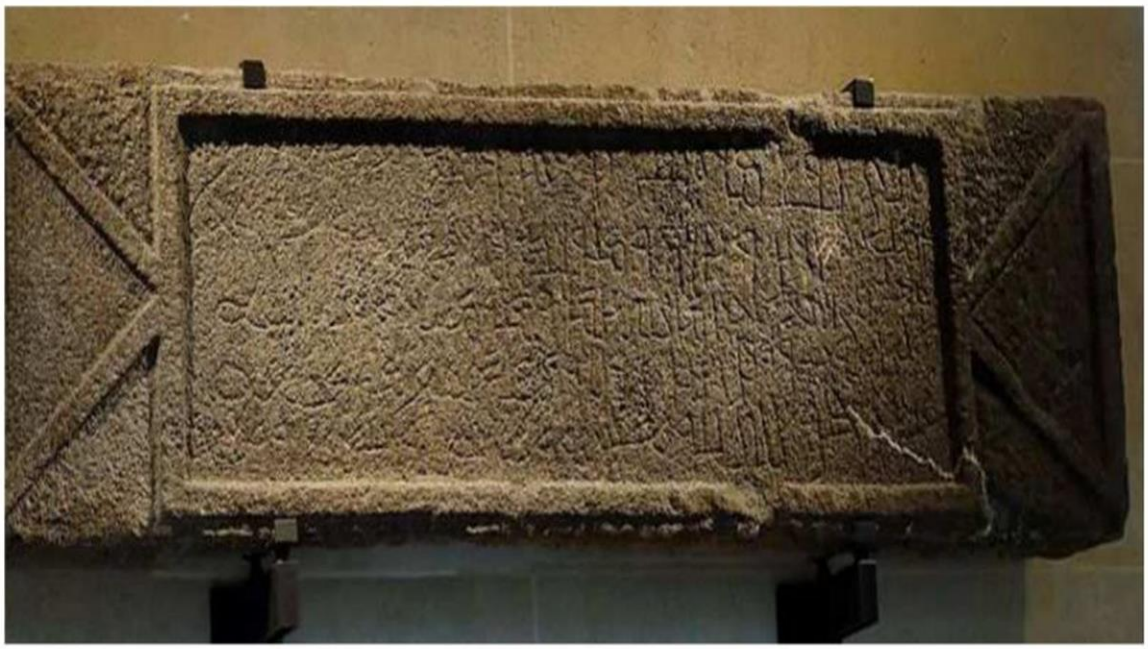

هذه أيضا :(**)

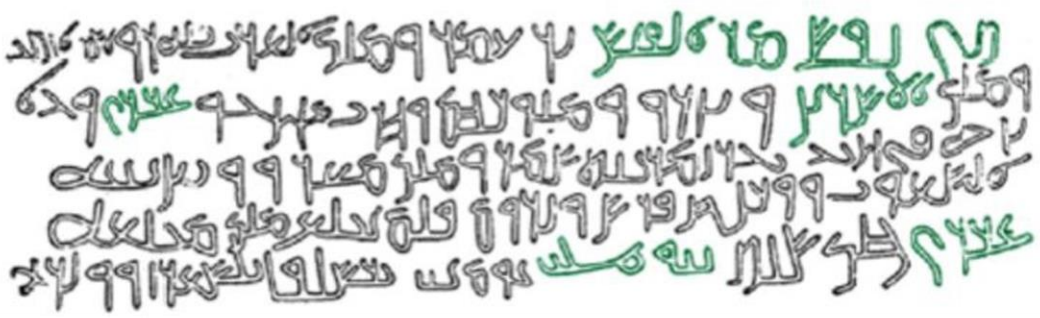

وهذا نصها بالحرف العربي :

١ - تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله دواسر التاج

٢ - وملك الأسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجوعكدي وحاء

- يزجوفي حبج نجران مدينة شمر وملك معد وونزل بنيه

- الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

ه - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذوولده

وترجمتها :

١ - هذا قبر امرئ القيس ملك العرب كلهم، الذي تقلد التاج

٢ - وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم، وقاد

- الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا، واستعمل بنيه

- على القبائل، وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه

ه - إلى اليوم، هلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من أيلول، وفق بنوه للسعادة

وأما أقدم نص مكتوب بالخط العربي فهو نفس زبد الذي يرجع إلى سنة ٥١٣م، ثم نَفْسًا حَرَّان وأم الجمال اللذان يرجعان إلى عام ٥٦٨م. وقد لوحظ أن الصورة الأولى للخط العربي لا تبعد كثيرا عن الخط النبطي، ولم يتحرر الخط العربي من هيئته النبطية إلا بعد أن كتب به الحجازيون لمدة قرنين من الزمان. وظلت الكتابة العربية قبيل الإسلام مقصورة على المواثيق والأحلاف والصكوك والرسائل والمعلقات الشعرية، وكانت الكتابة آنذاك محصورة في الحجاز.

متى يتكلم العلم العربية

كانت اللغة العربية قبل الإسلام لغةً قوية فصيحة، تُستخدم في الحديث والشعر والخطابة والتجارة، حتى أكرمها الله بأن جعلها لغة القرآن الكريم، فازدادت مكانة وخلودًا، وانتشرت مع الفتوحات الإسلامية حتى صارت لغة الدين والعلم والمعرفة ومع القرن الثاني الهجري، بدأت الحضارة الإسلامية بالتفاعل مع حضارات الأمم الأخرى، فدخلت العلوم الطبية والكيميائية والفلكية والرياضية إلى العالم العربي، وصارت العربية لسان العلماء والأطباء والصيادلة.

ويُعد خالد بن يزيد بن معاوية أول من اهتم بنقل علوم الكيمياء إلى العربية، إذ كان مولعًا بالتجارب العلمية وترجمة الكتب اليونانية، فمهّد الطريق لظهور جيل من العلماء الذين دوّنوا علوم الطب والصيدلة بالعربية.

كما يُعد الحارث بن كلدة من أوائل الأطباء العرب الذين تعلموا الطب في جنديسابور، واعتمدوا على الخبرة العملية في معالجة المرضى بالأعشاب والعقاقير

وفي العصر العباسي، بلغت النهضة العلمية العربية ذروتها؛ فأنشئت بيوت الحكمة في بغداد، ونُقلت كتب الطب والكيمياء والصيدلة من الفارسية واليونانية إلى العربية على أيدي علماء مثل حنين بن إسحاق وثابت بن قرة، حتى أصبحت العربية لغة البحث والتأليف في الطب والدواء.

ثم بدأت مرحلة الإبداع العربي الأصيل، فكتب العلماء مؤلفاتهم الطبية والصيدلانية بالعربية، مثل: علي بن سهل الطبري في فردوس الحكمة، الرازي في الحاوي والمنصوري، وتحدّث عن تركيب الأدوية وطبيعة العقاقير، ابن سينا في القانون في الطب، الذي بقي مرجعًا أساسًا في الطب والصيدلة لقرون، الزهراوي في التصريف، الذي أسّس علم الجراحة ووصف أدواتها. لقد انتقلت هذه العلوم إلى أوروبا عبر الأندلس وصقلية، واعتمدت الجامعات الأوروبية على المؤلفات العربية قرونًا طويلة في تدريس الطب والصيدلة. ومع ضعف الأمة الإسلامية، بدأت العلوم تُدرّس بلغات أجنبية، لكن العربية عادت لتتكلم الطب مؤقتًا في مصر في عهد محمد علي باشا، إذ كانت مدرسة قصر العيني تُدرّس الطب بالعربية، وترجم أساتذتها عشرات المراجع العلمية قبل أن يُلغى ذلك عام 1903م.

واليوم، تواجه اللغة العربية تحديات كبيرة في التعليم والبحث العلمي، خاصة في كليات الطب والصيدلة، حيث يعتمد الطلاب على اللغات الأجنبية. ومع ذلك، تبقى العربية لغة قادرة على استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة، لأنها لغة اشتقاق وغنى ومرونة. إن طالب الصيدلة اليوم حين يدرس علم الدواء والمصطلحات الطبية، يجدر به أن يتذكر أن كثيرًا من هذه المصطلحات جذورها عربية، وأن العلم حين يتكلم العربية لا يفقد دقته، بل يكتسب هوية وانتماءً وفخرًا.